المجلة السعودية للعلوم الإنسانية
الإصدار الأول
المجلد (١) العدد (١)
(١-١٠) ٢٠٢٣

United Arab Scientific Publishing Company

المجلة السعودية للعلوم الإنسانية
Saudi Journal of Humanities

"تجارب تفاعلية بين الإبداع البشري والإمكانات الرقمية في الفضاء المعماري لإعادة تشكيل هوية المكان" قراءة في تجربة الفنان "ميقال شيفالي"

د/ هادية بن حسين
(استاذة بالمعهد العالى للفنون والحرف بقابس)
نشر إلكترونياً بتاريخ: ١٠ نوفمبر ٢٠٢٣ م

الملخص :

مع الفن المعاصر تغيّرت نظرة الفنانين للمكان، حيث لم يعد مجرّد خلفية محايدة للأعمال الفنية بل أصبح مكوناً أساسياً من عناصر التعبير ويجسد "تملك المكان" في الفن التشكيلي المعاصر من منضور أنّ الفنان قادر على تشكيل البيئة المحيطة والتفاعل معها وجعلها جزءاً من رسالته مماّ يخلق تجربة حسيّة عميقة للمشاهد .

في ظل تطوّر التكنولوجيا وتداخل الفضاءات المادية مع الرقمية أصبح للمكان مفهوم يمكن للفنانين التلاعب به ونقله إلى مستويات جديدة وفي هذا السياق يتجلّى دور الفنان المعاصر في استغلال المكان كوسيلة لطرح تساؤلات حول الهوية، الإنتماء والعلاقة بين الإنسان وبيئته.

يعد الفن الرقمي ثورة حقيقية في عالم الفنون، حيث فتح أمام الفنانين أفاقًا واسعة للإبداع بعيدًا عن الأدوات الكلاسيكية وقد ظهر هذا النوع من الفن في أواخر القرن العشرين وتطوّر بشكل ملحوظ مع تطور البرمجيات والتكنولوجيا الرقمية ليصبح اليوم من بين أبرز أشكال الفن المعاصر التي تجذب إهتمام الجماهير والنقاد ولعلّ ما يميز الفن الرقمي هو قدرته على المزج بين العناصر التشكيلية التقليدية والإمكانات التكنولوجية الحديثة مثل التصوير ثلاثي الأبعاد، الواقع الإفتراضي، الذكاء الإصطناعي، والمؤثّرات البصرية، ممّا يمنح الفنان حريّة أكبر للتعبير وتحقيق رؤاه بطرق جديدة.

الكلمات المفاتيح :

(التفاعل،الهوية المكان،الرقمنة،الإسقاط الضوئي،ميقال شيفالي)

المقدمة :

سأعمل ضمن هذا العنصر على تفسير وتحليل مجموعة من المفاهيم التي إشتغل عليها الفنان "ميقال شيفالي" ومن أهمها:

- مفهوم التفاعل:

يستند البحث على مفهوم التفاعل حيث يعرف لغة بأنه فعل ثلاثي مزيد (ف ع ل) مُتَفَاعِلٌ فهو تفَاعلاً، يتفاعلُ . أما اصطلاحا تفاعلَ الشيئان أَثّر كُلٌّ مِنْهما في الآخر ، فهو العملية التي يتم فيها تبادل التأثير بين طرفين أو أكثر في سياقٍ معين، بحيث يؤثر كل منهما في الآخر ويتأثر به.

أمّا على المستوى التشكيلي يُشير "التفاعل" إلى تلك الإستجابات المتبادلة التي تحدث بين العمل الفني وجمهوره، بحيث يمكن أن يساهم الجمهور في تشكيل المعنى النهائي للعمل أو حتى تغيير بعض عناصره وفقًا لأسلوب التفاعل المسموح به " فالتفاعلية سيناريو ديناميكي في الإبداع التشكيلي" وهو أيضا "المرحلة الأخيرة لتطور التجريب في الفنون الأمر الذي يتجسّد مع الفن التفاعلي المعاصر الذي يتّخذ من المتلقي محور المنجز التشكيلي وذلك لتعزيز روح التفاعل بين الأعمال الفنية والجمهور بفعل عمليات التجريب"

- مفهوم هوية المكان:

جاء مصطلح الهوية في اللغة العربية من كلمة "هو" و الهوية هي محمل السمات التي تميّز شيئا عن غيره. "إن المكان بوصفه علامة لغوية هو أحد شظايا الجذر اللغوي (ك ون)، وقد جاء في لسان العرب ‘‘مكان: في أصل تقدير الفعل (مفعل) وهو موضع لكينونة الشيء فيه’’" .

تشير عبارة "هوية المكان" إلى العمليّة الأساسية لتكوين الهوية وإستمرارها فيما يتعلّق بمنطقة جغرافية محدّدة "فهوية المكان أياً كانت محمولاته الرمزية و الدينية و العقائدية و الإقتصادية و الترفيهية و التخطيطية و المعمارية هي جزء من حركة البشر و تفاعلاتهم حوله فهوية المكان وذاكرته تتحدّد بحسب تاريخه وفنونه المعمارية و الإبداع في المكان يشتمل ذلك على تخطيط المكان"

هذا المفهوم أُستخدم منذ القديم من قبل العديد من الفنانين من بينهم الفنان " vincent van gogh " الذي ركّز على تصوير الأماكن التي عاش فيها مثل الريف الهولندي و جنوب فرنسا حيث أنّ لوحاته مثل "حقول القمح" تمثّل هوية المكان من خلال التعبير العاطفي المرتبط بالموقع.

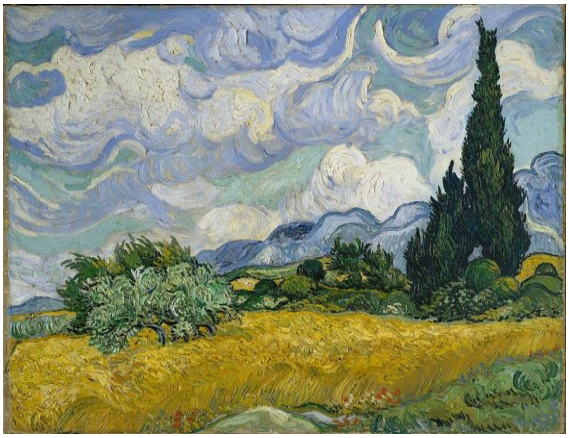

فنسنت فان جوخ،حقول القمح، ١٨٨٩، لوحة زيتية قماشية

أبعاد اللوحة ٤٠×٥٠ سم

- مفهوم الإختراق

الإختراق هو فعل ثلاثي [خ ر ق] إخترقَ يخترق ، إختراقًا ، مفهوم "الإختراق" إصطلاحا يُشير إلى عمليّة تجاوز الحواجز أو الدخول في شيء ما بشكل قوي ومؤثر، يُستخدم غالبًا لوصف التقدم القوي في موضوع معين أو عبور حواجز مادية.

ومن إيجابيات المصطلح انّه ينقلنا إلى ما بعد الحدود: ليجعل الفكر في وضع التحرر مثلما يشير "جورج باتاي" فإن "الإختراق لا يتحدّد بالنفي... بل هو يتخطّى الممنوع ويكمّله" .

٢.الإسقاطات الضوئية في الفضاءات المعمارية:

- تغيير هوية المكان

تغيير هوية المكان موضوع إشتغل عليه العديد من الفنانين المعاصرين في سياقات مختلفة سواء من خلال التدخّل في الفضاءات العامة أو إعادة تشكيل الأماكن.

إنطلاقا من تحليل أعمال الفنان "ميقال شيفالي" نرى أنّه يعتمد على الكساء الضوئي كوسيلة لإعادة تصميم الفضاءات المعمارية و تحويلها من فضاءات مهمّشة إلى لوحات فنيّة، فتغير هوّية المكان هو عنصر أساسي يعكس قدرة الوسائط الرقمية على إعادة تشكيل الفضاءات المألوفة وتحويلها إلى بيئات حيّة ومتحركة، حيث أنه لا يقتصر على مجرد تغيير الشكل البصري للمكان بل يعيد تعريف المفهوم التقليدي للمكان نفسه.

فمن خلال الإسقاطات الضوئية والأنماط الرقمية يعيد "شيفالي" تعريف دور المكان الذي أصبح متعدّد الأبعاد يجلب إلى فضائه المتلقي لينغمس فيه ويتماهي في مدلولاته ممّا يدفعه إلى التساؤل عن كيفية تأثير التكنولوجيا على قرائتنا و تصوراتنا للفضاء؟

يركّز الفنان على خلق تأثيرات بصرية تنبثق من المكان وتعيد تشكيله بحيث يصبح العمل الفني والمكان وحدة واحدة مستخدما الإسقاطات الضوئية لإحداث تغييرات بصرية على الأسطح المختلفة مثل الجدران، الأسطح المعمارية و حتى الأرضيات ممّا يخلق تأثيرات بصرية تنقل المكان من حالته الثابتة إلى مساحة متغيّرة ومتحرّكة طامسا في سريانه تلك الفوارق بين الواقع و العالم الإفتراضي، إذ تبدو الجدران وكأنّها تتحرّك وفق ديناميكية تحوّلت فيها إلى تمثّلات فنيّة تتميز بالتغيّر وعدم الارستقرار مانحة المكان هوية جديدة ومتجدّدة في كل لحظة،هويّة خلقتها تلك العلاقة التفاعلية بين الإضاءة و المكان .

- من فضاءات العرض المغلقة إلى الفضاء الخارجي:

انتقل الفنان "ميقال شيفالي " من فضاءات العرض المغلقة إلى فضاءات خارجية و بيئات مفتوحة ليتيح فرصة لإستقطاب و تشريك أكثر عدد ممكن من الجماهير وإنطلاقا من دراسة وتحليل أعمال الفنان تبيّن لنا انّ الإسقاطات الرقمية والتجهيزات التفاعلية تتطلب مهارات تقنية متخصّصة في مجالات مثل البرمجة والتصميم ثلاثي الأبعاد والإضاءة والهندسة الصوتية لذلك يعمل الفنان مع فريق يضم خبراء في التكنولوجيا الحديثة لضمان تنفيذ العمل بدقة وجودة عالية .
ومن بين هذه الأعمال التي عرضت في الفضاء الخارجي نذكر:

" الأرابيسك الرقمي Digital Arabesques" بالإشتراك مع المبرمجين "سيريل هنري" و "أنطوان فيليريت" وقد استلهم "ميقال شيفالي" من الثقافة والهندسة المعمارية المغربية لإنشاء أثره الفني، معيدا النظر في التقاليد المغربية من خلال التقنيات الجديدة ل"رسومات بيانية" مختلفة متكوّنة من أنماط هندسية تشير إلى الزليج والأرابيسك والفسيفساء ، تتبع بعضها البعض بشكل عشوائي.
تخلق هذه الأنماط المتحرّكة المختلفة موجة تمتد في التتشكّل إلى ما لا نهاية، تقحمنا في أغوارها لنتحسّس ونكتشف أكوانًا حيّة ملوّنة تتجدّد بإستمرار،أكوانا تتفاعل فيها عوالم الضوء مع حركات الزوار، تتحوّل الموجة الضوئيّة تحت أقدامهم لتقحمهم في صلب العمليّة الفنيّة و يصبحون جزء لا يتجزّأ منها ، يأخذهم الخداع أو بالأحرى الايهام البصري إلى الإحساس بتحرّك و دوران الجدران و الأرضيّة وتشابك و تقاطع الارابيسك ممّا يخلق الدهشة و الحيرة في صفوف الجمهور المتلقي .

ميقال شيفالي، الأرابيسك الرقمي Digital Arabesques، دار البطحاء، فاس، المغرب،٢٠١٥

في عمل آخر له بعنوان "الشبكات الكونية Maillage Cosmiques" وهو عمل فني رقمي ضخم عرض في ديسمبر ٢٠٢١ من تصميم "ميقال شيفالي"، عُرض بأسلوب الإسقاط الضوئي على واجهة كنيسة القديس مدينة إيكس أون بروفانس بفرنسا ،يُعدّ هذا العمل جزءًا من مجموعة شيفالي التي تمزج بين الفنون الرقمية والتقنيات المتطوّرة، حيث يعتمد على الواقع الإفتراضي التوليدي ليصبح "كل شيء يتحرّك، كل شيء يتغيّر،حتي الخلفية متعدّدة الوجوه " .

يتم الكشف عن ما يقارب عن ثلاثون شبكة مختلفة من الضوء الملون، المتراكبة على خرائط السماء أين يمتزج هناك الخيال بالعلم، مماّ يخلق أكوانًا متنوّعة تتجدّد باستمرار،تتجاذب وتتنافر ممّا يخلق إيقاعًا من التمدّد والانكماش يشبه حركة التنفس.،يسلّط فيها العمل الفني الضوء على هندسة الواجهة ولا سيما البرجين المثمنين والأقواس ثلاثية الفصوص وخاصة الوردة الكبيرة التي يبلغ قطرها أربع أمتار والتي تنبض بالحياة .

إختيار "شيفالي" لهذا المكان "الكنيسة" لم يكن إعتباطيا بل لأنّه ذو طابع ديني ينسجم مع مفهوم Maillage Cosmique فهو عمل يرمز إلى الشبكات الكونية والهندسة الخفية للكون وهي أفكار غالبا ما تتلاقى مع الفضاءات التي تدعوا إلى التأمّل و التفكير في النظام الكوني.

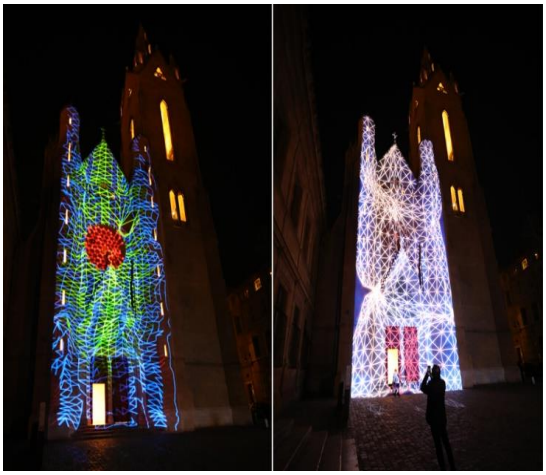

ميقال شيفالي، الشبكات الكونيةMaillage Cosmique، واجهة كنيسة القديس مدينة إيكس أون بروفانس، فرنسا٢٠١١،

وفي عمل آخربعنوان "ميتا-الطبيعة Meta-Nature " إنتقل الفنان إلى مساحة معمارية أخرى و هو عمل فني رقمي تفاعلي، يبدّد الفوارق بين الطبيعة والذكاء الاصطناعي ليتفاعلا فيما بينهما ،يعرض العمل حديقة افتراضية تولّد أشكالًا نباتية مكوّنة من صور ثنائية وثلاثية الأبعاد، تتطوّر مع مرور الوقت عبر الفصول " فأعمال شيفالي تفاعلية بفضل أجهزة إشعار التواجد، تتفاعل حدائق صور الطبيعة مع مرور الزوار، إذ تنحني من اليمين إلي اليسار كما لو كانت تحت تأثير رياح إفتراضية" .

يفسّر العمل تشكيليّا كيف يمكن للذكاء الاصطناعي أن يعيد تشكيل مظاهر الطبيعة ممّا يخلق عالمًا تتداخل فيه الكائنات العضوية مع الأشكال الرقمية الأمر الذي أشار اليه "شيفالي" في مقابلة صحفية قائلا "ما يهمني اليوم هو أن العلماء نجحوا في إبداع عمليّة محاكاة نمو النبات وهذا قادني إلى أن أتخيّل أنني يمكنني إعادة خلق شكل من أشكال الطبيعة الإصطناعية، على غرار الصورة النمطيّة للواقع، مثلما فعل "مونيه" مع لوحته Nympheas" .

تم عرض العمل في عدة معارض، منها معرض "ماذا تقول النباتات" في أفينيون بفرنسا، وفي معرض "ضوء سيول دي دي بي" (Seoul Light DDP 2023) حيث تم عرض تمثيلات تفاعلية للنباتات تنمو وتتشابك في "دوامة نباتية غامضة" مصحوبة بموسيقى "لكلود ميشيلي".

يعتمد هذا الفنان على قاعدة بيانات مكوّنة من أنواع مختلفة من الأشجار وأوراق الشجر والزهور، ثنائية وثلاثية الأبعاد، واقعية و مجرّدة وقع اقحامها في العالم الافتراضي لتجرح في صورة رقمية رسم رموزها الذكاء الاصطناعي.

فكانت النتيجة صور لأزهار خيالية ذات تنوّع كبير وجمال بلاستيكي مذهل، مع إنعكاسات قزحية ولؤلؤية. تُثري هذه الصور قاعدة الزهور والأوراق التي جمعها ميغيل شوفالييه بالفعل لتخرج نابضة بحياة إصطناعية تتكاثر عناصرها وتتوالد بشكل عشوائي فتتكاثر فيما بينها لتتوالد وتزهر ثم تختفي و تندثر

ميقال شيفالي، ميتا - الطبيعة الذكاء الإصطناعي،معرض أفينيون، فرنسا ٢٠٢٣

في السنوات الأخيرة إنتقل الفنان إلى مساحة مختلفة عمّا سبقها لينجز عمل جديد بعنوان "الجنة الرقمية الجليدية Digital ParadICE IA" وهو عمل فني رقمي تفاعلي من إنجازالفنان "ميقال شيفالي" بالتعاون مع المبرمج "سيليرهانري"، عُرض لأول مرة في عام ٢٠٢٤ في حلبة التزلج باتينوار " Edith-Ballester" بجزيرة لاكروا في مدينة روان بفرنسا ،يمثل هذا العمل جزءًا من الإحتفالات الثقافية المرتبطة بأولمبياد باريس ٢٠٢٤ ويهدف إلى دمج الفن والرياضة في التجربة التشكيلية.

يتميّز العمل بتصاميمه المستوحاة من أنماط السبعينيات، تحوّلت فيه أرضية الحلبة إلى لوحة ديناميكية تضم أنماطًا متغيّرة باستمرار بتأثيرات ضوئية متجدّدة تفاعلت مع حركات المتزلجين لتقحمهم في صلب العمليّة الفنيّة فتتحوّل حلبة التزلج إلى محمل حيّ ينبض بالحركة و الحياة.

ميقال شيفالي، الجنة الرقمية الجليدية، حلبة التزلج، فرنسا،٢٠٢٤

٣ تفاعل المتلقي في إطار الوسيط الرقمي:

إختراق المتلقي للعمل الفني:

ما يميّز أعمال "ميقال شيفالي" هو التفاعل بين العمل الفني والمتلقي من خلال الوسيط الرقمي، حيث يصبح المشاهد جزءاً لا يتجزأ من التجربة الفنية وفق تفاعليّة تلعب فيها الحركة والجسد الدور المركزي للبناء. أهميّة التمسناها من خلال تقنيات الإسقاطات الضوئية والوسائط الرقمية التفاعلية التي تجعل الحركة الجسدية للمشاهد جزءاً فعّالا في بناء انشائيّة العمل الفنّي.

فالأعمال تعتمد على استشعار حركة المتلقي باستخدام تقنيات مثل الكاميرات وأجهزة الاستشعار التي "تقوم بالكشف عن أي مدخلات مبرمجة من البيئة المادية والاستجابة لها"، فبمجرد دخول المتلقي إلى مساحة معينة تتولّد مباشرة علاقة تفاعليّة بينه و بين الأثر الفني بمفعول الاسقاطات الضوئيّة،الأمر الذي يجعل من الجسد المتحرّك المكوّن التشكيلي الأوّل و الأساسي لإحياء الفضاء الرقمي ممّا يمنح المتلقي الإحساس بالتحكم بالمسار الفني بل بالعمليّة الابداعيّة ككل.

وإذا ما حوصلنا الأمر نرى أنّ المتلقي ليس مشاهدًا سلبيًا بل يتحوّل إلى مشارك نشط، كل حركة يقوم بها تُولّد إستجابة من العمل الفني ممّا يُدخل الجسد في حوارية مستمرة مع التكنولوجيا، هذه العلاقة الديناميكية تعكس مفاهيم جديدة حول التفاعل بين الإنسان والتكنولوجيا إذ لا يكتمل العمل الفني إلا بوجود الجسد المتحرك،اكتمال دفعنا إلى التساؤل حول حدود العلاقة بين الجسد الطبيعي والفضاء الرقمي.

- التنوّع في الوحدة

إنّ الوحدة تعني تكاثف وتماسك وتناسق عناصر اللوحة وإرتباطها الوثيق ببعضها البعض أمّا عن التنوّع فهو وجود تباين بين العناصر الموجودة في اللوحة مثل التباين اللوني أو الحجمي أو الإتجاهي.

في إطار إستقراء أعمال "ميقال شيفالي" يتجلى مفهوم "التنوّع في الوحدة" من خلال تقديم أعمال تفاعلية تتغيّر بناءًا على تفاعل الجمهور مماّ يخلق تجربة ديناميكية لكل متفرج أو مجموعة، "فشيفالي" يدمج عناصر متعدّدة ومتنوّعة مثل الحركة و الضوء وفق إطار موحّد يسمح بالتعبير عن تجارب فرديّة مختلفة ومتنوّعة فعلى سبيل المثال عند تفاعل الجمهور مع أحد أعماله قد يُحدث كل شخص تغييرًا مختلفًا في سلوكياته بناءً على موقعه أو حركته أو طريقته في التفاعل ممّا يخلق التنوّع داخل العمل نفسه، لكنّه يظل متماسكًا ضمن إطار فني متناغم وبهذا الشكل يحقق "شيفالي" مزيجًا رائعًا بين الإختلافات الفردية والتكامل الكلّي ليُحوّل العمل الفني إلى تجربة مبنية على التنوّع و الإختلاف وعلى الإستمرارية والانفتاح .

وتبعا لذلك يمكن أن نخلص إلى القول بأنّ أعمال "ميقال شيفالي" تجسّد نموذجًا للفن الرقمي المعاصر الذي يتجاوز الحدود الكلاسيكية للفنون البصرية ليتحوّل إلى وسيط تفاعلي يجمع بين الإبداع الفني والتقنيات المتقدمة من خلال استخدام الكساء الضوئي المسلّط على الفضاء المعماري بأسلوب يعيد تشكيل العلاقة بين الفن، المكان، والجمهور.

فالعمارة إستنادا على تجربة الفنان ليست مجرّد هياكل ثابتة بل فضاءات حيّة تنبض بالحركة والتغيّير بمفعول التدخّلات الضوئية التي تجاوزت تأثيرها على العمارة إلى تأثيرها على المتلقي الذي أقحمته في صلب العمليّة الإبداعيّة ليصبح جزءًا أساسيًا من التجربة الفنية.

بهذا الإجتياح الضوئي للفضاءات، يعكس "شيفالي" فلسفة جديدة تُعيد التفكير في دور الفن المعماري والتكنولوجي، حيث يتحوّل الفضاء إلى وسيط ديناميكي للتعبير عن قضايا كالهوية و الزمن مثلا ،فأعماله ليست مجرّد تركيبات رقمية بل تجارب حسيّة متكاملة تستفزّ الفكر وتغمر الحواس ممّا يجعلها شاهداً على تحوّل الفنون البصرية في العصر الرقمي ومؤكدة على أنّ مستقبل الفن يكمن في التفاعل بين الإبداع البشري والإمكانات الرقمية.

قائمة المراجع

المعاجم

- المنجد في اللغة العربية المعاصرة
- معجم المعاني الجامع

-معجم عربي عربي

- قاموس عربي-عربي
- قاموس "مدى" لمصطلحات النفاذ الرقمي والتكنولوجيا المساعدة

الكتب باللغة العربية

- عبد الفتاح نبيل،التراث المادي و الهوية: هوية المكان و هوية البشر، مركز الأهرام
- ستيفان فيال، الكينونة والشاشة، ترجمة إدريس كثير، المنامة، ٢٠١٨
- كريم محسن علي ، جماليات التجريب في الفن التفاعلي العربي المعاصر

المجلات العربية

- محمد محسن الزراعي، ظاهرة الإختراق في الفن المعاصر ، مجلة أوراق فلسفية، العدد ٢٦ ٢٠٠٩-٢٠١٠

الكتب الفرنسية

-، ٢٠١٨، NEUTRES Jérôme ،ROSENBERG David ،Miguel Chevalier Couleurs Contemporaines / Bernard Chauveau éditions ،Paris

PIGUET Philippe ،interview de CHEVALIER Miguel ،« L'art numrique ou la possibilit d'autres Mondes » ٢٠١٣ ،